عزيزى الإنسان

أ.د/ محمد داود

Dr.mohameddawood@yahoo.com

فى ليلة شاتية طويلة ، طوى الذهن الأيام الطوال من عمر مضى ، مزدحم بالأحداث : آمالٌ تتحقق ، رغباتٌ تتبدد ، رفاق وأحباب يتخطفهم الموت ، مواليد جديدة تحمل أمل الحياة ... وهكذا تتلون الحياة : فقر بعد غنى ، وغنى من بعد فقر ، صحة من بعد مرض ، ومرض من بعد صحة ، ظلمٌ هنا وفقرٌ هناك ، وتطوينا الأيام كما طوت من قبلنا ... ما هذى الحياة ؟ وما الإنسانُ فيها ؟

ولعل الملائكة كانت قلقة على مستقبل الإنسان على سطح هذه الأرض حين قالت :

{أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} [البقرة: ٣٠]

وكان الجواب من العلى الأعلى : {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة / ٣٠]

ويوجه الله تعالى الإنسانَ ويذكِّره بحقائق غالية من شأنها إيقاظ الإنسان من غفلته ، وماذا يملك الإنسان أمام هذه الاستفهامات القرآنية الخالدة ، يقول الله تعالى :

{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون: ١١٥].

{أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} [القيامة: ٣٦]

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [الجاثية: ٢١]

وتعالى الله أن يخلق الإنسان أو الكون عبثًا !!

تعالى الله أن يترك الإنسان دون حساب !!

كما يذكّرنا القرآن الكريم بلحظات وأوقات مرت وأزمنة مضت ، ولم يكن للإنسان فيها ذكر ولا وجود ، وعلى العاقل أن يسأل نفسه : من الذى جعل للإنسان ذكرًا ووجودًا ؟!

لقد كان الإِنسان قبل فضل الله حفنة من تراب ؛ ثم أنعم الله وتفضل على حفنة التراب فسوَّاها؛ ثم نفخ فيها من روحه ، لقوله تعالى : {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [ص / ٧٢] .

وبعد أن تفضل الله تعالى على الإِنسان فخلقه وجعل له ذِكْرًا ووجودًا بيَّن ووضح له مهمته فى هذا الوجود ، فقال الله تعالى : {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات / ٥٦] .

ويصنف القرآن الكريم الناس حسب استجابتهم لهدى الله وتوجيهه إِلى قسمين ، ويرسم لذلك صورتين ، يمكن من خلالهما تفسير مظاهر التناقض التى نراها فى هذه الحياة :

الصورة الأولى : توضح الإِنسان حين يتخلى عن هدى الله وتوجيهه ، حين يتخلى الإِنسان عن الإِيمان وعن مهمته فى هذا الوجود ، وهى مهمة العبودية الخالصة لله رب العالمين .

ويمكن الوقوف على أهم ملامح هذه الصورة من خلال الآيات التالية :

- ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم / ٣٤] .
- { وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا } [الإسراء: ١١﴾ [الإسراء / ١١] .
- { وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا } [الكهف / ٥٤] .
- { وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ } [الزخرف: ١٥].
- {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا} [المعارج: ١٩]
- {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} [العاديات: ٦] [العاديات / ٦] .
- { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر: ٢].

والحديث عن الإِنسان الطاغية الظلوم الكَفَّار الخاسر الهلوع الكنود حديث عن الإِنسان حين يترك لنفسه وهواه ، حين يستبد به الشيطان فى غيبة الإِيمان .

وبعد هذه الأوصاف الذميمة يعرض القرآن لنا الصورة الثانية المضيئة .

وهى صورة الإِنسان حين يؤمن ، ويظهر عليه أثر الإِيمان فى أقواله وأفعاله وسائر أحواله . وتظهر الآيات القرآنية هذه الأوصاف الطيبة بوضوح ؛ كما فى قوله تعالى :

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: ٢].

إن الإيمان قوة إيجابية تدفع الإنسان إلى فعل الخيرات و ترك المنكرات .. و ترفع همة الإنسان لإنجاز كل الطموحات و الأعمال النافعة فى حياته الدنيا .

ثم هناك داخل مجال الإيمان منازل ودرجات للمؤمنين عند الله تعالى وضحها القرآن الكريم، منها : درجة التقوى ، ودرجة الصبر ، ودرجة الإِحسان ، ودرجة الأبرار . وغيرها من المنازل الإِيمانية .

وكل هذا يعطينا إشارة واضحة إلى سر الصلاح والفلاح والتحول من الضلال إلى الهداية .. إِنه الإِيمان .. فبدون الإِيمان يتأتى للإِنسان الأوصاف الذميمة .. وبالإِيمان يتحلى المؤمن بالأوصاف الحميدة .. فقيمة الإِنسان عند خالقه غالية حين يؤمن .

اللهم رُدَّنا إلى الإِيمان ردًّا جميلا .

والحديث موصول إِن شاء الله تعالى .

Dr.mohameddawood@yahoo.com